مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 18 العدد01 2022/01/15

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

علماء الدين واعيان المجتمع المحلي لمستغانم القرن 18م : دراسة انثروبولوجية لأرجوزة "سبيكة العقيان" لبن حواءالتوجيني.

Religious scholars and local community notables of the 18th century Mostaganem: an anthropological study of" sabikat al akian "of "ibn hawae al toujini".

الدكتور بعلي محمد سعيد*

جامعة عبد الحميد بن باديس . مستغانم

baalimedsaid@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/10/01 تاريخ القبول: 2020/10/26

ملخص:

يمثل دراسة التراث الأدبي وما يكتنزه من موروث ثقافي وتاريخي زاخر بالمعلومات والمعارف بشتى أنواعها حقلا معرفيا خصبا لا يزال بحاجة إلى نحت علمي للكشف عن خباياه ودراسة مضامينه خاصة ما يزخر به من معلومات تاريخية وفي هدا الإطار يمثل لون الأرجوزة الشعرية التي نظمها بعضهم في سابق الزمان مادة علمية مهمة لنقل صورة عن التاريخ المحلي ومختلف مجالات الحياة الاجتماعية للناس، كما هو الحال مع أرجوزة "سبيكة العقيان في من حلَّ بمستغانم وأحوازها من العلماء والأعيان" للشيخ الفقيه سيدي محمد بن حواء التوجيني المستغانمي التي تدخل في هذا السياق بما تشكله من نافدة مهمة عن الحياة العلمية والثقافية للمدينة وأحوازها في القرن الثامن عشر ميلادي وبما ضمنها صاحب المنظومة من سير وتراجم لمجموعة من علماء واعيان وأولياء الله صالحين عاشوا أو ولدوا في مستغانم في ذلك العهد وقبله ليبني بها الحجة الدامغة ويدحض مزاعم انتشرت في ذلك العهد تدعي بان مستغانم ليست وطن علم واصفة سكانها بالجهل والطغيان وقلة العلم والعرفان .

كلمات مفتاحية: الأرجوزة، المنظومة، سبيكة العقيان، مستغانم وأحوازها.

Abstract:

The study of the literary heritage and its cultural full of information and knowledge of all kinds, represents a fertile knowledge field that still needs scientific sculptures to reveal its hidden things and study its contents, especially

* **المؤلف المرسل**: : د. بعلي محمد سعيد، **الايميل**: baalimedsaid@yahoo.fr

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

what is rich in historical information. Scientific is important to convey a picture of local history and various areas of people's social life, As is the case with Arguza of "slug of Al-Aqyan"(sabikat al alakian) by Sheikh al-Faqih Sidi Muhammad ibn Hawa al-Tujaini al-Mostaghanami that enters in this context with what constitutes an important windows on the scientific and cultural life of the city and its Suburbs in the eighteenth century and including it The system owner is accompanied by the biographies and translations of a group of righteous scholars and guardians who are righteous who lived or were born in Mostaganem in that era and before it to build the irrefutable argument and refute allegations that spread in that era claiming that Mostaganem is not a city of science and describing its inhabitants as ignorance, tyranny, lack of knowledge and gratitude.
Keywords: Arguza, the system, slug of Al-Aqyan, Mostaganem and its environs

- **مقدمة**

مثل الشعر في تاريخ العرب عبر حقب زمنية متعاقبة شكلا من أشكال التواصل الثقافي ونوع من أنواع التعبير الشفوي جعله يتحول فيما بعد إلى مصدر من مصادر المعرفة التاريخية ، وعبر محطات تاريخية متعاقبة من تاريخ العرب كان أسلوبا مهما في نقل المعارف وشكل حقلا خصبا للمادة التاريخية فيما بعد.

فالشعر بما يمثله من مخزون ثقافي و معلوماتي يقدم لنا في كثير من الأحيان جملة من صور الحياة الاجتماعية و الثقافية و السياسية وينقل كثير من خصوصياتها،كما أنه قبل كل ذلك هاجس وجداني يعكس نفسية صاحبه وما يختلج بداخله من عواطف وانفعالات تعكس هي الأخرى الوضع العام (سواء الاجتماعي، الاقتصادي، الثقافي، السياسي) للبيئة المعاشة في تلك الحقبة الزمنية التي نظمت فيها تلك الأبيات، وهو ما يذهب إليه مثلا الشيخ البوعبدلي في معرض حديثه عن الدور التاريخي الذي لعبه شعر لخضر بن خلوف وخصوصا ديوانه المشهور الذي خلد فيه معركة مزغران الشهيرة بين الجيش الإسلامي والجيش الاسباني في القرن 16" ... رأينا ذلك لنلفت رأي القراء إلى أن الشعر الشعبي في بلادنا الذي يمتاز بأنه سجل هام لتاريخ البلاد وجغرافيته .." (الراشدي، 2013، صفحة 27)

وهكذا نجد أن الشعر كفن من فنون الأدب ونوع من أنواع الإبداع الإنساني كثيرا ما كان فضاء حافلا بأحداث تاريخية بفضل ما يسجله الشعراء من وقائع و أحداث في قصائد ومنظومات وأرازيج ضمنوها ما

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

شاهدته العين وتفاعل معه الوجدان، لتصبح فيما بعد بفضل التراكم الزمني والمعرفي للمعلومات المضمنة زادا معرفيا ومصدرا من مصادر البحث التاريخي.

وإذا كان الشعر بمفهومه "الأدبي" قد اختصت به طائفة من المبدعين الذين احترفوا هذا النمط من الشكل التعبيري في صورة شعراء الجاهلية مثلا ... الخ، فان هناك طائفة أخرى ظهرت خلال العهد الإسلامي وفي أقطار مختلفة من الفضاء المكاني الذي تملكته الحضارة الإسلامية، اهتمت بنظم قصائد شعرية ودينية اختصت في بداية الأمر بمدح الرسول الكريم (عليه أفضل الصلوات والسلام) ثم انتقلت لتشمل ذكر مناقب الصالحين والعلماء والتابعين وغيرها من المآثر في صورة ما أبدعته قرائح منظمي الأرازيج والمنظومات الشعرية في العهد العثماني.

نذكر في هذا السياق العمل المهم قام به المؤرخ أبو القاسم سعد الله بتحقيقه لمخطوط ثمين، نشره تحت عنوان "أشعار جزائرية." يحمل مساحة كبيرة من المعلومات والمعارف حول الشعر الجزائري في العصر العثماني، ويعرف بمجموعة مهمة من الشعراء الذي برزوا آنذاك أمثال: القوجلي والشباح والمنجلاتي وابن رأس العين وابن ميمون وابن علي وابن عمار الجزائري وغيرهم، مع طائفة كبيرة من النصوص الشعرية.

في هذا المجال نذكر أرجوزة "سبيكة العقيان فيمن حل بمستغانم وأحوازها من العلماء والأعيان "لصاحبها الشيخ الفقيه سيدي محمد بن حواء التوجيني المستغانمي والتي هي موضوع بحثنا. وهي عبارة عن نص شعري متكون من 161 بيتا كتبها صاحبها المعروف ب "ابن حواء" يرد فيها على من وصف مستغانم وأهلها بالجهل وقلة العلم والمعرفة ويذكر فيها جملة ممن عاصرهم من العلماء الجهابذة والأعيان والقضاة والمشايخ والصالحين ليكذب كل المزاعم التي ذهبت إلى القول أن مستغانم ليست حاضرة علمية وأن أهلها بلا علم وفيض جهل، فيعرض في منظومته مجموعة من عاصرهم من العلماء والأعيان والمشايخ والصالحين ومن لم يدركهم في سابق الأزمان ويأتي على مناقبهم ومآثرهم. كما ينقل لنا ذلك القاضي عبد الله حشلاف في كتابه سلسلة الأصول،* تلك الصورة في معرض تقديمه للأرجوزة وسياق نظمها من قبل الشيخ بن حواء فيقول: "... وكانت في سالف الزمان قرار الجهابذة الأعيان وقد جمعهم العلامة الشيخ

* سلسة الأصول في نسب الرسول (ص) لصاحبه العلامة الشيخ سيدي عبد الله ابن محمد بن الشارف بن سيدي علي حشلاف

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

محمد بن محمد الشهير بأمه حواء التوجيني نسبا المستغانمي منشأ ومدفنا المسمى سبيكة العقيان رد فيها على من وصف سكانها بالجهل والطغيان وقلة العلم والعرفان .." (القاضي، 1929، صفحة 103)

أولاً: تراجم عامة أم تاريخ محلي:

يميز الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه التاريخ الثقافي للجزائر(الجزء الثاني) وبالضبط في فصله الخامس المعنون بـ: التراجم، الرحلات بين نوعين من التراجم:تراجم خاصة وتراجم عامة. فيقول: "..... نعني بالتراجم العامة التأليف التي اشتملت على أكثر من ترجمة سواء كانت تتناول تراجم مدينة أو ناحية أو عصر، في مقابل ذلك سنخصص حيزا في هذا الفصل للتراجم الخاصة ،وهي التي كتبتها أصحابها هادفين الى ترجمة شخص بعينه كترجمة المقري لابن الخطيب و يوجد في الوثائق التي اطلعنا عليها عدد من التراجم العامة ، بعضها قصير لا يغطي سوى بضع صفحات وبعضها كبير حتى أنه تجاوز الثلاث مائة صفحة ،كما أن بعضها أرادوا أن يغطي علماء و صلحاء مدينة ما ..." (سعد الله، 2007، صفحة 350)

وفق هذا التقسيم يمكن إدراج منظومة "ابن حواء" ضمن التراجم العامة، فهي تدخل إذن ضمن "التاريخ المحلي" الذي يتناول بالدراسة والبحث في تاريخ جهة معينة أو ناحية خاصة من نواحي القطر الجزائري أو حادثة جرت فيه، فمثل هذه الأرجوزة وأشباهها لا يمكن أن نعدها من التاريخ الشامل الذي يتناول الظواهر التاريخية التي حدثت في منطقة واسعة أو خلال فترة طويلة، فابن حواء "يذكرا الفضاء الجغرافي موضوع "عمله" ممثلا في مدينة مستغانم وأحوازها ويربطه بزمن اجتماعي عايشه متحسرا على ماضي تليد وجميل ومتأسفا لحاضر بليد وبئيس تنكر فيه أهله لعلماء الجهة وصلحاؤها وكثرت فيه العيوب والظلمات وأتسم بقلة أهل العلم وخاصته مقارنا بين وقت مضى منير(دون أن يذكر بدقة الفارق الزمني بينهما)، أين كانت فيه المدينة تعج بالعلماء وأهل العلم الذين يصفهم بالجيش العرمرم (البيت الثاني عشر من المنظومة) قبل أن ينضب منبع العلم لصالح فيض من الجهل والجهالة وغيرها من موجبات الهول كما يقول في البيت السابع عشر من منظومته.

والمنظومة هذه إضافة إلى قيمتها الأدبية فهي وثيقة تاريخية مهمة يمكن اعتبارها مرجعا ومصدرا توثيقيا مهما تؤرخ لمرحلة من مراحل التاريخ المحلي للمدينة وأحوازها بما ضمته من توصيف لبعض من مناحي

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الحياة العلمية بصفة خاصة والبيئة الاجتماعية للمدينة بصفة عامة في زمن تاريخي معين (القرن السابع عشر ميلادي) وهي بذلك تقدم قيمة معرفية مهمة في جانب البحث في التاريخ المحلي الذي يعاني شحا في المعلومة ويمثل هذا الشح احد العناصر التي تجعل البحث فيه صعبا والولوج لحقله ملغما بصعوبات منهجية وبحثية كما يشر إلى ذلك المؤرخ مولاي بلحميسي* الذي له مؤلف مهم حول تاريخ مستغانم أين يذكر في مقدمته أن احد أهم العناصر التي تصعب من مهام المهتم بالغوص في تاريخ مدينة أو جهة هو افتقاره للمعلومات وحرمانه من الوثائق على عكس التاريخ العام "... في كثير من مدننا، فان كل المهتمين بالبحث في تاريخ مدينة أو جهة عموما نجدهم محرومين من الوثائق فقد عرفت كثير من الناس المهتمين يشكون صعوبة حصولهم على كتاب أو ملف يهمهم، التاريخ المحلي هو وتاريخ يهتم بمدينة معينة يحتاج الى إعادة بناء ... عوائق كثيرة وأضواء مهمة بحاجة إلى استنارة من الماضي الغابر إذا أردنا الوصول إلى معرفة تاريخية مكتملة للوضع السياسي والثقافي والاقتصادي لمدننا وحواضرنا ..." (BELHAMISSI, 1982, p. 07). وهو ما يفسر ربما شح الكتابة في الموضوع حول كثير من حواضرنا على غرار مستغانم، المدينة التي يعتقد "المولاي بلحميسي" أنها بحاجة لمن يكتب لها تاريخها "... مستغانم وأحوازها وعلى غرار كثير من المدن كمازونة ومعسكر والقلعة لازلت لا تملك تاريخا خاصا بها ... المصادر العربية أو الأجنبية هي قليلة ... وإمام هذا الشح في المعلومات والمصدر، على الباحث التاريخي ... أن ينتبه ويحول اهتمامه لأدب الرحلات وكتب الجغرافيين ، كتب التراجم والسير، الإشعار الشعبية، المدونات التراثية، المراسلات ... وغيرها مما يمكن تصنيفه ضمن خانة الأدب الشعبي ..." (BELHAMISSI, 1982, p. 08)

وعليه فان القيمة التاريخية لهذه المنظومة تمثل مرجعا ومصدرا مهما يمكن الرجوع إليه لكتابة التاريخ الثقافي لمدينة مستغانم أو على الأقل جرد سيرة وتراجم علماء القطر المستغانمي خلال العهد العثماني.

لكن قبل عرض مضمون الأرجوزة لنقف أولا عند صاحبها فمن هو الشيخ الفقيه محمد بن حواء؟ وما هي أهم الملامح السياسية والاجتماعية للعصر الذي تزامن وحياته.

ثانياً: التعريف بالشيخ محمد بن حواء وبيئته الاجتماعية:

* مولاي بلحميسي : (1930-2009) أستاذ ومؤرخ ولد بمازونة وله عدة مؤلفات تاريخية

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

هو محمد بن محمد بن حواء بن محمد بن الجيلالي بن عبد الله بن أحمد بن عمر بن عيسى التوجيني المستغانمي كما يشير الى ذلك في منظومته (فها أنا مناضل عن وطني، ومولدي وموضعي ومسكني) وقال كذلك في مخطوط بيده لشرح ابن سعيد. "..... الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد فقد تم نسخ شرح ابن سعيد يوم السبت الرابع من شوال عام اثنين وأربعون ومائة وألف (1142هـ/أفريل1730) على يد كاتبه محمد ابن حواء الموفق المشهور بأمه حواء بن قدار بن الجيلالي بن عبد الله بن أحمد بن عمرون بن عيسى التوجيني نسبا الراشدي إقليما المستغانمي منشأ وقرارا غفر الله له ولوالديه أمين ....." (بن قادة، 2019، صفحة 65)، إذن فشيخنا تعود نسبته الى قبيلة بني توجين (بنواحي معسكر) الأمازيغية الأصل، ولكنه اشتهر بكينونته "المستغانمي" التي اكتسبها بحكم المولد والموطن والمسكن فها هو يقول "... وإنا لنا بها ولادة وسكن منذ سنين قدرت عن نصف قرن يقرب ..." (بن قادة، 2019، صفحة 66)

لا تشير المصادر التاريخية المتوفرة الى تاريخ دقيق لميلاد الشيخ وان كان الكاتب الفرنسي مارسال بودان "marcel boudin"*، يعتقد أنها كانت في أواخر الق 17 استنادا الى التاريخ الذي نظم فيه منظومته والذي صادف يوم الاثنين الفاتح من جمادى الأولى سنة 1142هـ الموافق ل 22نوفمبر 1729 حيث كان عمره في تلك الفترة يقارب الثلاثين أو نيف "... إن مؤلف بهذه القيمة لا يمكن إن ينجزه الا رجل له تجربة في المسائل الشرعية وليس من الحظ القول إن (ابن حواء) يكون قد تجاوز عمره الثلاثين سنة في سنة تنظيمه للأرجوزة سنة 1729..." (Boudin, 1930, p. 228)، وأيضا المنظومة المسماة "الريحانة المروحة على القلوب المقترحة " التي أنهاها يوم 28 ذي القعدة سنة 1176هـ الموافق ل شهر جوان 1763 وكان عمره قد تجاوز الخمسين سنة، وأغلب الظن أنه عمر طويلا .." (بن قادة، 2019، صفحة 66)

بالنسبة لتاريخ وفاته فإنه أيضا غير محدد بدقة،حيث يشير الدكتور أبو القاسم سعد الله إلى أنه قد عاش الى أواخر القرن 18م "... ذلك أن ابن حواء قد عاش الى أواخر القرن 12هـ (18م) ..." (سعد

* مارسال بودان: ولد في 07 أفريل 1806 بميتز (موسيل) و توفي في 09 مارس 1867 بباريس، و هو طبيب وأنثروبولوجي، مؤسس الجغرافيا الطبية ،كما أنه مؤسس لجريدة مرسيليا الطبية وأنشأ كلية الطب في القاهرة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الله، 2007، صفحة 352). يعتقد الأستاذ الصادق بن قادة أن الشيخ الفقيه يكون قد عمر طويلا نسبيا مستدلا بأبيات من الشعر نظمها في هذا الاتجاه. (بن قادة، 2019، صفحة 66) وعلى عكس تاريخ الوفاة فان مكانها معروف، فضريحه واضح في المدينة الحالية أين يتوسط المقبرة المركزية القابعة في الجهة الجنوبية باتجاه مدينة ماسرة، ولا يزال الضريح مقصدا ومزارا لأهل المدينة"... غير أن مكان وفاته كان –كما هو معلوم – بمسقط رأسه، حيث يوجد قبره خارج السور القديم لمدينة مستغانم وهو مزار للتبرك به ... " (بن قادة، 2019، صفحة 66)

الإنتاج المعرفي للمؤلف ضم أربع منظومات واحدة في علم المواريث والثانية أشرنا إليها سابقا بعنوان "الريحانة المروحة على القلوب المقترحة" والثالثة بعنوان "الغوثية الكبرى" والرابعة "سبيكة العقيان " التي هي موضوع المقال.

عاش الشيخ الفقيه وعاصر فترة عصيبة من تاريخ الجزائر بصفة عامة وتاريخ منطقة مستغانم بصفة خاصة اتسمت بالتقلبات السياسية والتي تزامنت مع فترة الحكم العثماني وتكالب الحملات الصليبية على السواحل الجزائرية بعد سقوط الحكم الأندلسي بسقوط غرناطة سنة 1492 وتوالي هجرات الموريسكيون إلى السواحل البحرية الجزائرية، وهو ما أعقبه حملات صليبية كثيرة ضد الجزائر، حيث ظلت مستغانم وعلى فترات زمنية متعاقبة ولمدة طويلة أيضا محل أطماع وهجمات عسكرية اسبانية وخلال فترة حياته تحولت السلطة السياسية إلى يد الباي بوشلاغم (1690م) بعد موت الباي شعبان الزناقي (1687م) الذي كان له الفضل في تحرير وهران الأول سنة 1708م من الغزو الاسباني وحولها الى عاصمة حكمه بعد أن كان مقر العاصمة في معسكر وقبلها مازونة. واستقر بها 24سنة قبل أن تتعرض المدينة مجددا الى هجمات الجيوش الاسبانية سنة 1732مما اضطره إلى الخروج إلى مستغانم والاستقرار بها الى غاية مماته سنة 1734 أين يوجد ضريحه الآن بمحاذاة الولي الصالح سيدي حمادوش بحي المطمر بالقرب من مقر الإذاعة المحلية حاليا.

سمحت هذه الظروف لمدينة مستغانم أن تصبح عاصمة للأيالة الغربية لفترة من الزمن تحت حكم المسراتية الى غاية 1774 عندما حول الباي عصمان بن ابراهيم المركز الى معسكر مرة أخرى قبل أن يتم تحرير وهران الأخير سنة 1792 بقيادة الباي محمد بن عثمان الكبير الذي جعلها مجددا مقر العاصمة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الغربية. يقول الدكتور الصادق بن قادة عن هذه الفترة "... مستغانم حظيت أثناء حكم المسراتية بقدر كبير من الثقافة إذ جاء من خلفها فترة شهدت تدهورا بالغا في الميدان الثقافي حيث نضبت منها ينابيع المعرفة وغاب عنها رجال العلم والفكر وكثرت فيها المفاسد وهذا ما عبر عنه سيدي أمحمد بن حواء في أبيات من سبيكة العقيان ..." (بن قادة، 2019، صفحة 70)

يظهر إذن أن البيئة الاجتماعية التي عاصرها المترجم كانت تتسم بتردي الأوضاع السياسية والعلمية والثقافية مثلما يعبر عنه في الجزء من البيت 84 الى 99 والذي يحمل آهات تعبر عن ألام المؤلف وما يكابده من حسرة عن ماض وتاريخ المدينة التي كانت تتلألأ بنور علمائها وطلابها قبل أن يحل بها الخراب والجهل .

وفي الحقيقة لقد كانت تلك البيئة الاجتماعية والسياسية من عوامل ظهور وذيوع هذا النوع من الأراجيز والمنظومات أو ما يطلق عليه بالغيثيات."*... ومن جهة أخرى، وصف هذا العصر بالتردي في الأوضاع الأمنية وكثرة الكوارث الطبيعية والاجتماعية كالمجاعات والأوبئة والزلازل وغيرها، الشيء الذي نتج عنه تبلور في الشعور الديني وميل الى الاعتكاف في الحياة الصوفية عند الشعب، الأمر الذي جعل عامة الناس يلتقون حول هؤلاء المعتكفين والمتصوفة لما شهدوه فيهم من أخلاص في العقيدة وصدق في التدين، طامعين من ذلك كله أن يذهب الله عنهم ما أصابهم من البلاء والمحن ...وكان هذا الشعور العام من الأسباب التي أدت إلى شيوع نوع من الأراجيز الصوفية يوسم: بالغوثيات ..." (بن قادة، 2019، صفحة 71)

ثالثاً: شرح لمضمون المنظومة:

المنظومة تقع في 161بيتا شعريا، ذكر فيها صاحبها جملة من الأعيان والعلماء في مستغانم وأحوازها ممن عاصرهم وأدركهم، في أواخر أيامهم، مستنكرا قحط زمانه من العلماء وأهله .

* الغوثية: هو نوع معروف في الأدب العربي، نبغ فيه كثير من شعراء الصوفية، منهم من يستغيث بسور القرآن أو بالصحابة والصالحين يناجي به الله يدعو به الى تفريج الكرب أو الانتقام للظالم أو درأ المطبات والمفاسد، كثر هذا النوع من الأدب في العقد التركي، تحول كثير من المهتمين به الى الحديث والتوثيق لتراجم وسيرة ومناقب الأولياء والصالحين على فترات زمنية مختلفة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يبدأ نظمه كغيره من المترجمين بالتعريف بنفسه بتواضع وأدب مشيرا إلى نسبه وموطنه.وارض مولده وكنيته (بن حواء) التي جاءته من نسب الأم ثم يخصص ثلاث أبيات يستفتح بها حامدا الله جل جلاله ومصليا على رسوله الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) وعلى من اهتدى بهديه المنير وسراجه الوضاح، ليشرع بداية من البيت الخامس في توضيح مضمون وموضوع نظمه الذي يدور حول دفاعه عن أرضه التي عبر عنها بكلمة (مثواه) ورمي أهل زمانه لها بالجهل واصفا ما حل به وبزمانه من عيوب لاسيما قلة أهل العلم الذي يراه أشد العيوب وأكثرها وبالا ويدافع بقوة عن هذا ويعتبر أن الذي رمي المدينة بهذا الوسم إنما هو الجاهل الغير مدرك للحقيقة والقاصر النظر والفهم (الذي في عيونه عمش كما يصفه في الشطر الثاني من البيت السادس) مشيرا أن معاييرها ذكروا كثير من العيوب أخطرها قلة العلم وهو العيب الأكثر وقعا على القلب كما يقول في الشطر الثاني من البيت الثامن وعليه فهو يرى إن شرعية انتماءه لهذه الأرض التي هي موطن ميلاده وموضعه ودار سكناه تتوجب عليه الرد على هذه المزاعم والأكاذيب وان يحمل لواء النضال والدفاع عنها فيبدأ حجاجه بالقول أن هذا الحال البائس هو حال جديد وان من أراد فعلا إعطاء حكم حقيقي على حال المدينة العلمي عليه أن يعود للوراء ويقتفي أثار الأولين من أهلها وحال العلم ي ديارهم مضيفا بل معترفا أن المجتمع الذي يقل علمائه هو مجتمع بائس لا خير فيه، منبها في ذات الإطار(القارئ) أن هذا الأمر(الحال) جديد ومحدث وأن عيوب هذا الزمان بهذه المدينة ليست متأصلة وإنما حديثة، فالسلف كان صالح والعلماء كانوا كثر إلى درجة يصفهم بالجيش العرمرم (البيت الثاني عشر من المنظومة).

الناظم يشرح الوضع الحالي وتحوله عن سابقه الجميل ويوجز مشاكل أمته في ثلاث صفات يوردها في البيت السابع عشر من المنظومة، صفتين ظاهرتين وهما: "قلة العلم" و"فيض الجهل" وصفة غير ظاهرة وعامة ويقول عنها "... وغيرها من موجبات الهول ...".

يظهر كما أشرنا سابقا إلى أن الشيخ الفقيه عاصر كثير من هؤلاء العلماء والصالحين الذين يتحسر على فقدانهم، خصوصا في البيت الثامن عشر، الذي يدعو فيه القارئ إلى الإنصات لإخباره بما كان وما حل بالمدينة التي يصفها في البداية بواديها (في قوله: ... ذاك الوادي) وهو على ما يبدو والوادي الذي يشق المدينة ويسمى" وادي عين الصفراء" والوادي هنا أيضا يحمل دلالة رمزية يشير الى الكثرة والتدفق

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مشيرا الى جملة العلماء والأخيار والأعيان الحاملين لخصال جميلة وحميدة والذين يقول انه أدركهم وعن شيوخ شابت على سنة الله ورسوله وإنهم اخذوا العلم من مشايخ تميزوا بالصلاح والأساس الطيب فإنصبغ نور السلف على الخلف وورثوا سر العلماء والصلحاء فحق بهم أن يكونوا فعلا أمناء الأمة لما عرفوا به من خصال حميدة (كما يصفهم في البيت السادس والعشرون).

لينتقل بعد ذلك الى ذكر هؤلاء الأعيان والعلماء بأسمائهم وأنسابهم ويبدأ بأكبرهم سنا وشأنا المشهور"أين قلة" الذي يصفه بالعالم الجليل وشيخ الملة،ثم ينتقل إلى الولي الصالح "ابن سعيد المالفي" المعروف بـ"سيدي عثمان" ثم "ابن السائح" الذي يصفه بأنه ناصر الشريعة فـ"بالحميدي" العالم المشهور كما يقول عنه، ثم الشيخ "محي الدين" وفرعه المبارك الميمون الشيخ السنوسي الذي يصفه بأنه علامة كبير في الحديث والتفسير وفرعه الآخر الفقيه "عبد الرحمن القيراني "، الشيخ "المنور" الحافظ الخطيب، "الشيخ الطاهر" الذي يصفه بقاضي القضاة وخاتمة الموثقين، "الشيخ الشريف الداجي" المشهور بجده سليل الصالح الكبير، الشيخ محمد المشهور جده بتادلولت والذي يقول عنه انه فارس الأصول والبيان والنحو والتصريف والميزان وأنه محي العلوم ومحقق في الدين وقارنه بعالم آخر ابن جنقور الذي يقول أنه فارس الخلاصة (الأمر بحاجة إلى تدقيق فهل يقصد صاحب كتاب خلاصة تاريخ الأندلس)، ثم المغراوي الذي يقول عنه انه عالم وله من جملة من الفنون (وهنا لسنا ندري إن كان يقصد المغراوي سيدي أبو يعقوب المغراوي العشعاشي أو شخص آخر غيره)، ثم يذكر شخص آخر باسم جده "دحمان" الذي يصفه بالعالم اليقظان لينتقل لذكر الشيخ المحقق المهذب صاحب المساءل الفقهية الشيخ الطيب صاحب سيدي سعادة، والعالم المحمود والمحبب بن جليد ثم يذكر شيخه "التادلي" الذي يكثر في الاطناب بذكره كدأبه مع كل شيوخه فيصفه بالجامع للعلوم الثاقب الإدراك والفهوم الصالح الشهير وبنفس الطريقة يذكر شيخا أخر له وهو "محمد بن علي" المغربي الذي يقول عنه أنه درة الأسلاك والعقيان والعابد ومحقق العلوم والقران الفائق التجويد والرواية بالسبع والعشر قبل أن يختم به قائمة هؤلاء الجهابذة.

وبعد أن يفرغ من ذكر علماء الوادي (أي مستغانم المدينة) ينتقل لذكر المشايخ والعلماء والأئمة الحفظة في الحوز المستغانمي الذي أمكنه ادراكهم في حياته ويبدأ بشيخ الشيوخ في عصره وغرة علماء القطر الشيخ

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

"محمد مصطفى الرماصي" الذي يقول عنه أنه خاتمة الحفاظ والنقاد وشمس بهذه الديار العامرة وبأنه فاتح قفل المشكلات وسراج غبش الظلمات ويفرد له أربع أبيات يقول فيها:

أولهم شيخ شيوخ العصر عزة جمع علماء القطر.

خاتمة الحفاظ والنقاد شمس بدور الأقويا الأفراد.

فاتح قفل مشكلات الوصم سراح عيش الظلمات الدهم.

رائس جمع الأقويا الغواص المصطفى محمد الرماصي..

كما يخصص ثلاثة أبيات للشيخ الوزاع العباس الذي يقول عنه عالم مشهور بالزقاق متقن للقران عالم صوفي محبب وولي عابد مجتهد في الطاعات فيه بركة تفيد البلاد والعباد:

والعالم المشهور بالزقاق المتقن القرآن بإتقان

والعالم المحبب الصوفي العابد المجتهد الولي

بركة العباد والبقاع عباسها المنسوب للوزاع

ثم يأتي على ذكر آخرون منهم: الولي الصالح "أحمد بن عامر البرجي"، الذي يصفه بالعالم الزاهد في الدنيا والعابد الخائف من الآخرة فيقول فيه:

والعالم الزاهد في دنياه العابد الخائف من مولاه

الصالح المستهر الولي أحمد نجل عامر البرجي

وصولا لمجموعة أخرى منهم العالم العامل "محمد بن أبي جلال"، والعالم المشهور بالعلم والولاية محمد بالمختار أو ربما محمد بلمختار الشليلي (فهو يقول انه معروف بالشليل) ...:

والعالم العامل ذي الأحوال محمد نجل ابي جلال

محمد المنعوت بالمختار وهو بالشليل ذو اشتهار

قبل إن يشير إلى أن القائمة طويلة لم يتسن له ذكر جميعهم معبرا عنهم بالبيت التالي:

ونحوهم ممن له مقاربه من حالهم تكسبه مناسبة

ولكنه لا ينسى في مقابل ذلك بختم القائمة بوالده الشيخ "الطاهر ابن حواء" واصفا إياه بالعالم المحدث الأستاذ العالم المحدود في الأفداد ويختم لهم بالدعاء والعفو.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

بعد أن يفرغ الناظم من ذكر هؤلاء العلماء والأعيان السابقون منهم واللاحقون يعود لوصف مناقبهم ومآثرهم مشبها علمهم بنور الشمس الذي يضئ على الأرض وكيف أن فقدانهم ترك فراغا رهيبا وأن رحيلهم اذهب ذاك النور وبدله كسوفا وظلاما لا يمكن شغله بعد ذهابهم الذي لا يمكن تعويضهم فهم ليس لهم خالف ولا وارث إلا ما نذر فيقول:

فهؤلاء العلماء السباق وغيرهم ممن له التحاق

كانوا شمس الأرض والبدور فأكسبوها زينة ونورا

حتى عرى شموسها الكسوف وصار في بدورها الخسوف

فانقرضوا ومالهم من خالق يحوز إرث تاليد وطارق

ويبدأ من هذه الأبيات تحسر المترجم على المرحلة الماضية وأسفه الكبير على المرحلة الحالية الحالكة فيقول:

وانقلبت بعدهم الرسوم حالكة تنوح فيها البوم.

يقول في نواحه الحنين المهطل الدمع من العيون

مفتت القلوب والأكباد آها على الجهابذة النقاد

فيسرد 10 أبيات تبدأ كلها ب "آهات" التوجع والأسى تنم عن ألم المترجم وحنينه الى ما ضاع من العلم والعلماء والشيوخ الأخيار والحكام العدل والقضاة وأعين جنودها أصحاب السيوف وطلبتها وعبادها السالكين لطريق الدين ودارسيها الذين على درب الإخلاص سائرين وطلابها المجتهدين الصادقين في طلب العلم والأدب والنصيحة والفقراء الذين تميزوا بأحكام التجويد فيقول:

آها على ورثة الرسول آها على الحقائق العدول.

....

آها على حكامها الذين كانوا بحق الله عادلين

آها على طلابها الذين كانوا كانوا على الإيجاد مجمعين .

إلى أخر البيت الذي يقول فيه:

آها على قوامها الذين كانوا لنار النفس مطفيين

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ويختم أبيات "الآهات" هذه الدالة على التأسف لحال زمن مضى بالترحم على روحهم جميعا طالبا لهم بالرحمة والبركة السمية :

فرحمة الله تعلى الباقية عليهم والبركة السمية

ليرجع ثانية الى تخصيص تنويه خاص لمناقب شيوخ وعلماء الجماعة التي سبق وأن ذكرهم بِالشيوخ، الأخيار، القضاة، الجنود، الطلبة، ودارسوا العلم .. وغيرهم، فيشير إلى براعتهم في العلم والتحقيق والولاية والنصح في التعليم والتحصيل وخصالهم الحميدة، مشبها نورهم وعلمهم بالشمس التي لا تحتاج الى المصباح، والفجر الذي لا يحتاج للصباح.

قبل أن يعود مرة ثانية للتعبير عن حسرته وآلامه لفقدانه هؤلاء الصالحين ويعبر عنهم ذلك بكلمة شديدة البلاغة * الانقراض* ساءلا لهم مجددا الرحمة لهم وللجميع:

اسأل ربي الكريم الرحمة لي ولهم و لجميع الأمة

تحسر الناظم يزيد لما يصفه ببلاء تغير حال الزمان، فالأمر كان يمكن أن يكون عاديا لو انتهى عند حدود ذهاب هؤلاء الصالحين ولكن الأمر أصبح أكثر خطورة ومرارة بفعل ما حل بهذا الزمن من شر وانتشار للبدع والمناكر الشنيعة وكأنها شريعة :

فكيف في هذا الزمان المقضع قد نشرت فيها بنود البدع

وصارت المناكر الشنيعة كأنها شريعة متبوعة

أمام هذا الحال وهذا الوضع المتردي لا يرى الناظم بدا من الانعزال و الإنعكاف بالبيت والصبر على الأقدار لمن خاف على دينه ودنياه مناجيا ربه طلب العون ومعبرا على ذلك بما يلي:

ومن يرد لدينه السلامة وخيفة الهموم والندامة.

فلينفرد ببيته مصطبرا مغتنما بما له قد قدرا

وبعدها ينتقل إلى مناجاة الرب و يطلب العون الإلهي في رسالة غوثية قوية جدا يعاود مسائلة من لام أهل مستغانم وعاب الوضع العلمي بمستغانم ووصفهم بالجهلة والغير عارفين لشؤون دينهم مما يدل مرة أخرى على ظروف نظم هذه الأرجوزة وهدفه الذي كان كما اشرنا إليه في البداية إجابة ورد من سأل عن وطن مستغانم ووصف أهلها بالجهل وقلة العلم، طالبا منهم عدم الجور في حكمهم، فإنما هذا الوضع البائد هو

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مدعاة للتأسف والندب خصوصا بعدما وصف لنا الناظم الحال الطيب الذي كانت عليه المدينة وأحوازها وما ميزه من وفرة العلم وأصحابه من أولياء ومشايخ صالحين وعدل حكامها وقضاتها ورخاء وغزارة ثقافة أهلها ،مشبها حالها بحال المرأة الجميلة التي تطلقت والتي لا تعاب لفقدها الرجل وإنما تعاب لسبب الطلاق، وتماما فالمدينة في نظره يتيمة بفقدها هاته العصب من العلماء والأخيار ويحق لها النحيب والبكاء، فقد تحولت الى أم ثكلى بعدما كانت عروسا بكرا وجب تقديم التعزية لها لما حل بها من مصاب جلل.

الناظم يعود أيضا في حال أخرى الى التحسر بمقارنة بما كانت عليه المدينة وحوزها وكيف أصبحت كالفاقد للقريب والحبيب يتوجب عزاءه في ما فقد وكيف تحولها حالها الآن، فيسرد أبياتا لتوضيح ذلك:

وهذه المدينة المصابة لفقدها عن هذه العصابة

حق لها النحيب و البكاء على خميس عمه الفناء

كانت كأنها العروس تجلى هم فصارت ألما وثكلا

فعزها عن موت هذا السلف وابك عليهم معها وانصرف

ويعاود مرة التذكير بأسف على تحول الحال في هذي الأرض الطيبة المباركة التي كانت مسكا للغنائم تجمع بين أهل الدين وأصحاب العيش الطيب الميسر الرخي والفطنة و آهل المناقب الذي عاشوا فيها وساروا في برها وبحرها ،فهي ارض معشوقة تأسر القلوب مقصد طالب العلم وخلوة وموطن تعبد الأولياء الصالحين قبل إن يتحول حالها وتنقلب أوضاعها وتنال منها دائرة التاريخ ويهلكها عاصف الدهور ويتغير العلم بالجهل ويحل محل اليقين البدع والزيغ والدجل والخرافات وينتشر في أرضها الظلم المناكر ويكثر أشرارها ويصبح الشر مكسب للعيش وضاع العقل في أهلها حيث يقول في مجموعة من الأبيات قائلا:

يأسفا على قرار باسم قد لقبوه بمسك الغنائم

بجمعه شرائع التدين ومنون العيشة والتفطن

كان لها بقطرها مناقب سارت فيها الركبان والمراكب

كانت قرارا طيبا مباركا يغبطه إلى الممات داركا

....

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

كانت معشعش علوم وطلب وأولياء ومن بدينهم هرب
كانت رياضا ظلها ظليلا فالآن فهوعن لظي بديلا
مشحونة بالبدع القواصم والظلم والمناكر العظائم
....
حتى يقول من له طبع أبي باليتها علي كعنق مغربي
ياسفا على زمان سلفا لنا به مع كرام حنفا

ليختم نظمه بالدعاء والتضرع لله الكريم ذا الجلال العظيم ليفرج الأحوال ويبدل الأوضاع ويبدأ بذكر وبحمد الله سبحانه وتعالى شاكرا له نعمه ، سائلا إياه الرشد إلى طريق النجاة وينيل عليه الدليلا إليه ويرزقه الستر الجميل لينهي نظمه بنفس المسلك الذي استهل به من خلال التوحيد والصلاة على رسول الله (ص) مشيرا في نهاية المنظومة إلى اسمها ".. انتهت سبيكة العقيان في ذكر ما أدركت من أعيان ...".

الخاتمة:

لقد حاولنا من خلال هذه الدراسة التحليلية لمضمون أرجوزة "سبيكة العقيان" الوقوف على جانب من السياق الثقافي والعلمي المرتبط بصاحب هذه المنظومة الشعرية وبيته الثقافية والاجتماعية ونحت بعض المدلولات المتعلقة بالسياق الزمني والعلمي الذي نظمت فيه الأرجوزة وتحليل مضمونها وما جاء فيها من معلومات مهمة حول شخصيات علمية واعيان عاشوا أو ولدوا في مستغانم خلال القرن 18 وقبله ولو بشكل بسيط وشكلوا أساس الحياة العلمية والثقافية للمدينة وأحوازها. وقد قسمنا الدراسة إلى عناصر ارتكزنا فيها أولا على توضيح المنحى العام للبحث من خلال تناول العلاقة بين عرض التراجم وبناء التاريخ المحلي كمدخل لتوضيح مكانة المنظومات الشعرية والمدونات التراثية بصفة عامة في حقل إنتاج التاريخ الثقافي ثم قدمنا ترجمة مبسطة لصاحب المنظومة بالتعريف به وبحياته ودراسته والبيئة الاجتماعية والعلمية التي عاصرها قبل أن ننتقل لتقديم شرح المنظومة وما ورد فيها من معلومات وتعريف بمناقب رجالات علم وصلاح واعيان ذكرهم الناظم وسجل مآثرهم للرد على من قال بان مستغانم ارض بدون علم استوطن فيها الجهل ولا رجال علم فيها وهو الشرح الذي سنحاول إن نستكمله في دراسة مقبلة بعرض تراجم وسيرة حياة جميع من ورد اسمه من رجالات العلم في هذه المنظومة.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله. (2007). تاريخ الجزائر الثقافي. (الجزء 5). الجزائر: دار البصائر.
2. أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي. (2013). الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
3. حشلاف القاضي. (1929). سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول (ص). تونس: المطبعة التونسية.
4. صادق بن قادة. (ديسمبر. 2019). الشيخ بن حواء المستغانمي ومنظومته سبيكة العقيان مكانتها في إنتاج المناقب الجهوية. المجلة الجزائرية للمخطوطات. (المجلد 1. العدد2)
5. BELHAMISSI, Moulay. (1982). histoire de Mostaganem (de nos origines à nos jours). Alger S.N.E.D
6. Boudin, Jean-Christian Marc. (1930) Histoires des indigènes. Alger